(3)

التجديد اللغوي والتطور

مـع احتـكاك العالم العـربي بالحضارة الغربيـة - ابتداء من القرن التاسـع عشر - بدأت الحضارة الغربية تفرض مصطلحاتهـا، ولغة المعارف والعلوم التي أبدعتها، ولهذا بدأت تظهـر الدعـوات إلى نقد وضعية اللغـة العربية، أو الدعـوة إلى تجديدهـا، بل وصل الأمـر فى فترة تاريخية إلى منـاداة البعض بتغيـير حـروف العربية إلى اللاتينية، فنجد أن سـلامة مـوسى يرى أن هذه «اللغة أصبحت خرسـاء لا تنطق بنحو مائة علم وفن يستمتع به جميع الأمم المتمدنـة»[1] وذلك لأن لغتنا العربيـة لا تزال لغة بدوية تلتزم الخيال، وتقنع بالعيش فى الوبر، وتحكم بالغيبيات، فى حين تعيش اللغات العصرية عيشـة الـترف، أو البـذخ بالعلوم، والفلسـفات الحديثة[2] كـما أن البلاغة العربية تخاطـب العواطـف دون العقل، وهـذا ضرر عظيم، فإننا حـين ننصح أحد الشـبان بأن يسلك السلوك الحسـن فى الدنيا، ويتخذ أسلوباً ناجحاً فى الحياة نشير عليه بالعقل والمنطق دون الانفعال والعاطفة[3].

---

(1) سلامة موسى: التثقيف الذاتي، سلامة موسى للنشر والتوزيع، 1946، ص154.

(2) سلامة موسى: نظرية التطور، ص8.

(3) سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية، دار ومطابع المستقبل، ط3، 1957، ص8.

وقـد تمادى سـلامة موسى فى نقـده للغة العربيـة حتى دعا إلى اسـتبدال حروف العربية بالحروف اللاتينية فنجده يقول «ليست اللغة العربية فقيرة التعبير،وإنما حروفها هي التي تعجز برسـمها عن التعبير، وإننا عندما نتخذ الحروف اللاتينية ننتقل ألف سـنة إلى الأمام، وذلك لأننا نسـتطيع أن نترجم بمتوسط كتاب فى العلوم والفنون كل يوم، فلا تمضى علينا سنتان حتى نكون قد عبرنـا الجسر بين القرون الوسـطى والعـصر الحديث»[1] ومـن الواضح أن سـلامة موسى يتخذ موقفاً متطرفاً من اللغـة العربية، وذلك لأننا نرى أن اللغة العربية التي اتهمها كل هذه الاتهامات قد اسـتطاع أن ينقل بها وإليها آراء فرويد، وماركس، ونيتشـه، وداروين، فاللغة العربية أداة طيعة، والأمر يتوقف على مسـتخدميها، وإلا فكيف نقل بهـا كل هذه الأفكار الغربية إن لم تكن مرنة؟!!

وقد انتقد إسـماعيل مظهر وضعية اللغة العربية - ولكنه لم يكن متطرفاً مثل سـلامة موسى - فرأى أن المشـكلة الكبرى التي تواجهها اللغة العربية أنهـا تتعلـق بموضوعات لاعلاقة لها بشـئون الحياة العامة تلك الشـئون التي يوجـه لها الناس جل اهتمامهـم، ويصفون فيها أكـثر جهودهم، فقد ظلت العربيـة واقفـة، وعجلة الحيـاة تدور، وتصـارع دورانها فى خـلال القرنين الفارطين، حتى بعدت الشـقة بين الحياة الجديدة ومطلوبات العلوم والفنون وبـين اللغة العربية، حتى إن الأمر لـيروع كل واقف على حقيقة الهوة التي تفصـل بين العلـوم والآداب وبين اللغة العربية من حيـث قدرتها على تأدية مدلولات المصطلحات فى كلمة مضرية، أو صحيحة الاستقامة على القواعد

(1) المرجع نفسه، ص162 - 163.

التـي احتكم بها بعض اللغو يـين فى بناء هذه اللغة الكريمـة، وأخذها عنهم كثير من أهل هذا العصر، أولئك الذين لم يفطنوا إلى أن حاجات هذا الزمان غـير حاجات الأزمان السـوالف[1] ويرى إسـماعيل مظهـر ضرورة تغذية اللغـة العربية و إنمائها عن طريق التعريـب، ونحت المصطلحات الجديدة، والقياس الاشـتقاقي لمفردات جديدة وذلك حتى تسـتطيع اللغة العربية أن تلاحق التقدم الذي يحدث فى المجتمع.

وفى ظـل هذا الجدل الفكري حول ضرورة إصـلاح العربية، كان هناك اتجـاه آخر ينـادى بضرورة المحافظـة على اللغـة العربية الفصحـى، فكان مصطفـى صادق الرافعـى (1880 - 1937) ينظـر إلى العامية على أنها رجس يجتنب، ووباء يتقى، وأن منشـوءها من اضطراب الألسـنة، وانتقاض عادة الفصاحـة، وكان رجال العربية فى وزارات المعـارف العربية - إلى عهد غير بعيـد - يعتبرون لغة الحيـاة - العامية - ذلـك الاعتبار الوبـائي، ويطاردونها مطاردة قاسية فى محادثة التلاميذ[2].

ويعتبر أمـين الخولى أحد أبرز الشـخصيات التي أعطـت اهتماما بارزا لوضعيـة اللغـة العربية، فـرأى أن المتكلمين بالعربية اليوم قـد فرقت بينهم عاميـات مختلفـة، واسـتبدت كل واحدة منهـا بجماعة منهـم، وترتب على هـذا أن العامية تغتصب من الفصحى أماكنها فى الحياة، وتنافسـها فى أخص تلـك الأماكن فتقصيها عن الأفواه، وتجنبها الألسـنة ما اسـتطاعت، وبذلك

(1) إسماعيل مظهر: تجديد العربية بحيث تصبح وافية بمطالب العلوم والفنون، مكتبة النهضة العربية، 1955، ص6 - 7.

(2) حامد شعبان: أمين الخولى والبحث اللغوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980، ص197.

تحول دون قربها من القلوب، وتزيدها ضعفا على ما أضعفتها به المنافسات الاجتماعية[1] ويرجع الخولى السبب فى انتشار العامية، أنها تلقى بقوة خفية توشك أن تكون سحرية، هي قوة الحياة، وقوة المجتمع، فهى من الحياة، وفى الحياة، وهى تستجيب لسنن الاجتماع،مرنة طيعة، فلا تتأثر بتلك المهاجمة، بل مضت تنمو نمواً مضطرداً، فتثرى فى مفرداتها، وتزيد طاقاتها الفنية، وبهذه القوة تقدمت فألزمت الفصحى مكانها المحدد فى الحياة الرسمية، دينية وحكومية، ومبلغ أمرها في أحسن تصوير أنها لغة قلم، والعامية لغة اللسان، وإنما اللغات صناعة الألسنة[2].

ولقد ترتب على الصراع بين العامية والفصحى ظهور ما يعرف بظاهرة (الازدواج اللغوي)، ويرى أمين الخولى أن هذه الظاهرة تجعل المجتمعات العربية تحيا، وتشعر، وتتعامل بلغة يومية مرنة، نامية، متطورة، مطاوعة، ثم هي تتعلم، وتتدين، وتحكم بلغة مكتوبة محددة، غير نامية لا تطوع بها الألسنة، وتتعثر فيها الأقلام، وهذا الازدواج اللغوي القهري يصدع وحداتنا الاجتماعية، ويفرقنا طبقات ثقافية وعقلية، ومن ثم فإن الأزمة اللسانية ليست إلا أزمة اجتماعية عملية، وعلمية تعليمة، وفنية حيوية، وهى ببعض ذلك خليقة بأن تكون أزمة وطنية سياسية تهز الكيان الاجتماعي كله»[3].

ويشخص أمين الخولى أزمة اللغة العربية الواضحة فى العملية التعليمية، وذلك لأن الأفراد الصغار بعد تعلم اللغة العربية اثني عشر عاماً بعد أن

---

(1) أمين الخولى: فن القول، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996، ص163.

(2) أمين الخولى: دراسات لغوية، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996 ص13.

(3) أمين الخولى: مشكلات حياتنا اللغوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987، ص8 - 10.

يحصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، وقد تزيد، ثم لا يظفرون منها بطائل، بل يتقدمون إلى الحياة كباراً لا يحسنون استعمال هذه الفصحى، والانتفاع بها، وهى أزمة إن شكاها الأفراد، فإن هذه الأزمة لتشكو من أنها تعيش بلغة، وتبذل فى تعلم لغة غريبة عنها فلا تجد فيها ما لابد منه للأمة[1] وقد تتلاحق الخسائر، وتتابع الأضرار حين تكون اللغة هي وسيلة كسب المعارف قد صارت هي نفسها مادة صعبة التعلم، سيئة النتائج يؤتمر لها كل حين، ويلتمس لها العلاج فى كل موسم، فإذا المرحلة الأولى من التعليم الإلزامي غير موفقة بسبب صعوبة تعليم اللغة[2] ويرى أمين الخولى أنه من الضروري ألا يشعر متعلم الفصحى بأنه حين يبدأ تعليمها أنه يتعلم لغة أخرى أجنبية تختلف اختلافا جوهرياً عن لغة الحياة التي يستطيع الطفل أن يعتمد عليها قبل دخوله المدرسة، يجد فيها حياته اللسانية، وحياة قومه وأهله، وذلك لأن الشعور بغرابة الفصحى وأجنبيتها هو أساس العقدة النفسية فى تعلمها، ومدار الأزمة في بعد الفصحى عن الأفئدة[3].

وقد أرجع أمين الخولى أزمة الفصحى إلى طريقة جمع اللغة العربية، وذلك لأن طريقة تقعيد اللغة العربية عمدت إلى التخلص من أي كلمة دخيلة فى اللغة فقد كان برنامجها في الجمع ألا يأخذوا عن حضري قط، ولا ممن خالط الحضر من أهل التخوم، وكلما أمعنت القبيلة فى البداوة كانت أولى بالنقل عنها، كقيس، وتميم، وأسد، ثم هزيل، وبعض كنانة، ولكن موضع الخطأ فيهم أنهم قرروا أن اللغة العربية ليست إلا هذا الذي جمعوه، وكانت النتيجة

---

(1) أمين الخولى: مناهج تجديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص13.

(2) أمين الخولى: مشكلات حياتنا، اللغوية، ص9.

(3) أمين الخولى: فن القول، ص178.

الطبيعيـة لهذه النظرة أنهم يريدون ألا يسـتعمل الناس أيام الدولة العباسـية البالغة مبلغاً عظيما من الحضارة إلا ما كان يستعمله هؤلاء البدو فى معيشتهم البدويـة، ومحـال ذلك، ولذلك رأينـا اللغة غنية غنى مفـرط فى أدوات البدو، ومعيشـة البدو، وفقيرة جداً فى حاجات المدنية، ولهذا اضطروا هم أو غيرهم بجانـب هـذا إلى التعريب بعـد أن أعرضوا عنـه نزولاً على حكـم الطبيعة، وتطور العمران، وخلطوا ما أخذوه عن القبائل بما عربوه من الأمم المتمدنة[1] ويبرز إسماعيل مظهر تخلف طريقة تقعيد اللغة العربية فيقول «إن القواعد اللغوية التي خلفها السـلف من اللغويين قد لابسـتها حالة من القداسـة، أو أنها ألبسـت ذلك الثوب عمداً اتقاء حالات قامـت فى عصور مدنيتنا الأولى، والحقيقة أن سـلفنا لم يلجؤا إلى تلك القواعد، ولم يقرروها إلا لحاجة غلبت على عصورهم، فأرادوا بها رد عادية الرطانة العجمية عن اللغة، وقد استطاعوا بكدهم، وجدهم، وصفاء قرائحهم أن يضعوا للغة سـواراً أشـد من الصلب، بحيث تقصر عنها هجمات الشعوبيين، وأهل العجمة، فحفظوا بذلك هيكل اللغـة صافياً، وموردها عذباً غير مدنس بأكدار الدخيل من لغات الشـعوب التـي اختلطت بالعـرب بعد القرن الثالـث الهجري»[2] ويطالب إسـماعيل مظهر بضرورة تغيير هذه القواعد، لأن الوسائل تتغير بتغير الأزمان.

وإذا كانـت طريقـة تقعيد اللغـة العربية هي أحد أسـباب أزمتها، فإن الخـولى يرى أن أحد أسـباب أزمة اللغة العربية هو اصطفاء طابع القداسـة عـلى اللغة العربية، مما جعلها مسـتعصية عـلى التغيير والتطويـر ويرى أن الإمام الشافعي فى (رسالته) قد أرسى صبغة القداسة على العربية، فكان يرى

(1) أمين الخولى: مشكلات حياتنا اللغوية، ص20 - 21.

(2) إسماعيل مظهر: تجديد العربية، ص4 - 5.

أن اللســان العربي هو أوسع الألسـنة، وأن القرآن قد نزل بهذا اللسان خالياً من كل لسان غير لسـان العرب، ولزم عن هذا أن الألسنة تتفاضل، وأفضلها لسان النبي، كما أن دينه أفضل الأديان، ويرى الخولى أن مثل هذا الاتجاه هو الذي نثر فى الجو ما نسـمع من تفضيل ديني لمنشـأ العربية، لكونها لسان أهل الجنة، وعن هذا ونحوه استقر فى النفوس ما للغة العربية من صفة دينية، وأن مسـامها بإصلاح يحتوى دائما على مخالفة للدين، وعدم احترام لصفة العربية الدينيـة لكونها لغـة القرآن[1] ومن ناحية أخرى فقـد روج بعض معاصري الخولى لمسـألة قدسـية العربية كمصطفى صادق الرا فعـى والذي رأى «أن الحكمـة ألقت فى طباعهم هذا النظام اللغوي، وجعلتهم بحيث ينسـاقون فى سـبيله إلى الكمال، لا تعترضهم عقبة، ولا يـصرف وجوههم عنه صارف من نظام المدنية»[2] وقد انتقد الشيخ الخولى هذه الدعاوى لأنها تؤدى إلى تجميد اللغة العربية، ورفض مسـألة تفضيل لغة على لغة أخرى، أو تفضيل العربية على غيرها من اللغات.

وإذا كان الخـولى يرفـض إضفاء طابع القداسـة على اللغـة، فإنه يطالبنا بـضرورة النظر إلى اللغة نظـرة دنيوية حيوية، ورأى أن إصلاح اللغة لا يتم إلا من خلال ربطها بالتطور كروح عامة تسود جميع وجوه الحياة الإنسانية، وتراعـى التغيـيرات التي تتـم فى الزمان والمـكان «فاللغة من أشـد المظاهر الحيوية لينـا، وأقلها تصلباً وتحجـراً، وأطوعها للتطـور، وقدماؤنا يدركون هـذا واضحاً حين يتحدثون عن تهذيب اللغـة وعوامله، وحين يقررون أن الاسـتعمال يحيـى ويميت، ويقبح ويحسـن، وحين يصفون تداخـل اللغات،

(1) أمين الخولى: مشكلات حياتنا اللغوية، ص65 - 66.

(2) حامد شعبان: أمين الخولى والبحث اللغوي، ص159.

وما إلى ذلك من دلائل الشعور بتأثر اللغة بالحياة تأثراً قوياً»[1] ومن ثم فإن التطور أصل أصيل في حياة اللغة بما هي كائن اجتماعي، وأساس التطور هو الوجود البسيط أولاً ثم النماء المترقي ثانياً، وخلال هذه الانتقال يتكون الكائن مترقياً، ويتغير تغيرات متدرجة، ومعرفة هذه التغيرات، وما خلفت فى كيان هذا الكائن الحي هو الأساس الذي تبنى عليه كل معرفة لهذا الحي، وأجهزة جسمه، وحالتها السوية، أو ظواهر الانحراف فيها، وكلما كملت هذه المعرفة بالحي أمكن تدبير وجوده بما ينميه ويكمله[2].

ومن منطلق دنيوي علماني يبين الخولى أثر البيئة الطبيعية، والظروف المعنوية والنفسية والعقلية فى تطورات اللغة، وهو ما يجعل للزمن دوره البارز فى تطور أي لغة على الأرض، فيقول «والتطور كما لابد أن تعرفوا هو الأصل التجريبي لفهم سير الحياة بالكائنات الحية على اختلافها، وعلى هذا الأصل يتحدث الباحثون فى اللغات اليوم عن تطور اللاغي، وتطور اللغة، فالصوت وجهازه فى الإنسان يتطور تطور طبيعيا مطرداً، وبذلك تتطور الأصوات اللغوية فى الأحرف التي تمثلها، ويتطور معها تأليف الكلم، ومع تطور اللاغي، وتأثيره في اللغة تفعل الحياة، تفعل بظواهرها المختلفة فى تطور اللغة، سواء فى ذلك الظروف المادية، أو الظروف المعنوية، فالبيئة الطبيعية التي تعيش فيها اللغة تؤثر فى تطورها، والظروف النفسية والعاطفية والعقلية لمتكلمى اللغة تؤثر فى تطورها، وأنماط الحياة التي يحياها متكلموا اللغة تؤثر فى تطورها»[3] ويرى الخولى أن تطور اللغة له قانون، وليس عشوائياً

(1) أمين الخولى: مناهج تجديد، ص17.

(2) أمين الخولى: مشكلات حياتنا اللغوية، ص46.

(3) المرجع نفسه، ص83.

فهو يجرى وفقاً لقوانين ثابتة، ولا يمكن لأحد أن يوقف تطور اللغة، والدليل على ذلك أنه رغم الأسـوار المنيعة التي أقيمـت لحماية علوم اللغة، فإن اللغة العربية أفلتت من جميع الأغلال، وتسـلقت الأسوار، وسارت فى السبيل التي أرادتها على السـير فيه سـنن التنوع اللغوي، فأصبحت على الحالة التي عليها الآن فى اللغات العامية.

ومـن ثم يمكـن القول بأن الخـولى يـرى أن العامية ظهرت نتيجة لسـنة التطور فى اللغة، ولكننا فى حاجة إلى أن تكون اللغة فى مصر والأمة العربية مثـل لغة الحياة فى ألوانها المختلفـة، وأداة التفاهم المرضية فى البيت والعمل، والجامعة، والمسرح، والنادى، وما إلى ذلك، فلا يعيش الناس بلغة، و يتعلمون لغـة أخرى، ولا يفكـر الناس بلغة و يدنون أفكارهـم بغيرها، ولا يتعاملون بلغة و يشعرون و ينثرون، ويمثلون، ويخطبون بغيرها[1].

وقـد حاول الخـولى أن يضـع برنامجـاً لتجديد وتطويـر اللغـة العربية، والتوحيد بين العامية والفصحى، فيرى أن وسيلة التوحيد لا تكون إلا بتقويم أود العامية، و إصلاح فاسـدها، حيث أنه بهذا الإصلاح لا يكون هناك فرق بين ما يدور فى الكتب، وما عليه عرف التخاطب العام، ولا يبقى أدنى امتياز فى مبادئ التعليم العمومية، إلا فيما يستتبعه التعليم كثرة وقلة، وذلك لا يضر بأصل الغرض المطلوب، متـى صارت لغة التخاطب هي لغة التدوين، إذ من السهل بعد ذلك أن يراعى فى التأليف سهولة العبارة، بحيث يستوي فى فهمها العلماء، ومن دونهم من سائر طبقات الناس على اختلافهم[2].

(1) أمين الخولى: فن القول، ص64. وأيضا: دراسات لغوية، ص17.
(2) أمين الخولى: دراسات لغوية، ص7.

ويطرح أمين الخولى محاولته لإصلاح بناء على النقاط الآتية:

1- ثبات الإيمان بفكرة التقريب بين لغة اللسان، ولغة القلم، وصدق العزم على الأخذ بوسائل ذلك لنؤمن فنعمل، ونقول لنفعل، ونقرر لننفذ، فلا يختلف قولنا عن عملنا بمثل ما فى معجمنا الوسيط من تصديره الثاني بقرارات المجمع عن فتح باب الوضع للمحدثين بوسائله المعروفة، والاعتداء بالألفاظ المولدة، أو تسويتها بالألفاظ المأثورة عن القدماء.

2- ضرورة المعاونة بين لغة الحياة، ولغة الكتابة، وذلك يكون بالجهد العامل في تتبع كتب أسلافنا في التصويب لقولة العامة، والظفر بها، ونشرها بعد تحقيقها.

3- تصحيح الصلة بين المجمع والحياة، بأن يكون تعامله معها أخذ وعطاء معاً، لا إعطاء فقط فقد جرب هذا الإعطاء، ورأي مدي تقبل الحياة له، وبقي العمل الثاني من أعمال المجمع وهو الأخذ عن الحياة[1].

ومما سبق نلاحظ أن محاولة أمين الخولي لتجديد اللغة العربية تنطلق من نقد أسلوب تقعيد اللغة العربية، ونفي طبع القداسة عنها، وأكد على ضرورة ربط اللغة بالتطورات الزمنية الحادثة في المجتمع، فاللغة أداه معبرة عن سيرة الحياة، ولابد أن تساير تتابع الحوادث في الزمن، وبالتالي فالخولي يتعامل مع اللغة من منطق علمي موضوعي، وينظر إلى تطويرها في ضوء قواعد علمية، وتظل دراسات أمين الخولي في مجلة (مجمع اللغة العربية) شاهدة على الجهود الكبيرة التي بذلها لتطوير أداء اللغة العربية لكي تساير العصر والحياة، وبذلك تتطابق أقواله وأفكاره مع أفعاله وممارسته.

(1) المرجع نفسه، ص19 - 20.